

تصورات وأفكار ابن باديس السياسية في  
مجال وحدة الشمال الإفريقي: الصعوبات  
 والتحديات.

د. محمد بليل

تمهيد: لقد اختلفت نوعية الاستعمار الذي هيمن على الجزائر عن غيرها من تونس والمغرب، فقد كان استعمار الجزائر استعمارا غريبا من نوعه، لا يماثله إلا استعمار جنوب إفريقيا ودول أمريكا اللاتينية، إذ اعتبرت الجزائر مقاطعة فرنسية بعد أربعة سنوات من احتلالها واتخذت مستعمرة استيطانية لكل الأوربيين<sup>(1)</sup>، ناهيا عن محيطها العربي الإسلامي بخلاف تونس والمغرب.

وقام الاستعمار الفرنسي بتبني سياسة استعمارية إقصائية للشعب الجزائري ونخبه السياسية والثقافية عن المشاركة في المؤسسات الاستعمارية وحررت لغته وصودرت أراضيه وتحولت العديد من الأسر الغنية إلى أسر فقيرة.

رغم هذه الظروف القاسية التي عاشها المجتمع الجزائري في نهاية القرن 19م؛ حافظت بعض النخب على مكانتها وتمسكت بالتراث العربي الإسلامي، وأخرى سمحت لها الظروف بأخذ قسط من العلم في المدارس الفرنسية، أو تلك المدارس الأهلية التي أنشأها الاستعمار لتخريج دفعات من الجزائريين يحتاجونهم في إدارته وفي التعليم. ورغم قتلها، إلا أنها برهنت لفرنسا بأن الجزائريين قادرين على تحصيل المعارف العلمية؛ مع احتفاظهم بأحوالهم الشخصية الإسلامية، وأحسن إشارة لذلك، هو ذلك المثقف الكبير الذي عرفته الجزائر، المتمثل في شخصية ابن أبي شنب، الذي ترك لنا تراثا تاريخيا وأدبيا وشارك في التدريس بالمعاهد الاستعمارية وشارك المستشرقين في أبحاثهم حول الدراسات الإسلامية<sup>(2)</sup>.

في حين برزت من جهة أخرى نخبة مثقفة ثقافة عربية إسلامية، عرفوا بال حافظين، تمسكوا بالشخصية العربية الإسلامية في الإطار الفرنسي، وقاد هذه الحركة كل من ابن الموهوب وعبد

\* أستاذ محاضر ب في التاريخ المعاصر - قسم العلوم الإنسانية - جامعة ابن خلدون - تيارت.

الحמיד بن سماية والأستاذ لوني سي شيخ ابن باديس، وتعاطفوا مع فكرة الجامعة الإسلامية، وفق هذه الحركة بداية بروز معالم الفكر الإصلاحي في الجزائر المستعمرة في نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م، بقيام مجموعات من الطلبة الجزائريين المتخرجين من جامعات الزيتونة والقرويين والأزهر والحجاز الخ... بتنشيط الساحة الثقافية أولاً، ثم الجهر بأفكارهم السياسية المعادية للاستعمار الفرنسي في عدة مجالات خاصة مع اقتراب الحرب العالمية الأولى، التي دفعت فرنسا إلى التقرب من النخب الجزائرية، سواء منهم المحافظين الرافضين للتجنيد الإجباري، أو تلك النخبة المفرنسة التي تأثرت بالأفكار الأوروبية، ودافعت عن سياسة التجنيد الإجباري؛ ما أوجد حراكاً سياسياً بين النخب الأولى التي برزت بشكل واضح متأثرة بالأفكار القومية للحركات السياسية المغاربية، كتونس الفتاة ثم الحزب الدستوري والحركة الوطنية بمراكش بقيادة علال الفاسي، ويذكر الأستاذ ابن العقون في مذكراته مدى الوعي الوطني المتزايد لدى المغاربة باستغلال ظروف الحرب العالمية الأولى وإرسال مذكرة مشتركة عرفت بمذكرة اللجنة الجزائرية التونسية الموجهة إلى مؤتمر السلم العالمي<sup>(3)</sup>.

وقد راسل الأمير خالد الرئيس الفرنسي "هوريو" يطالبه بالوفاء بالعهود التي قطعها فرنسا على نفسها خلال الحرب العالمية الأولى للجزائريين.

حرّكت هذه الظروف النشاط الديني والسياسي في الجزائر ببرز مجموعة من المشايخ والعلماء المتأثرين بالفكر الإصلاحي المشرقي والتفاعلات السياسية بالمغرب وتونس، حيث شجع ذلك أبرز الإصلاحيين في الجزائر المتمثل في الشيخ عبد الحميد بن باديس بالتحرك على مختلف الجبهات لطرح وجهات نظره، وفيما بعد بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين<sup>(4)</sup>.

يدفعنا ذلك إلى الولوج في شخصية عبد الحميد ابن باديس، أبرز زعماء الإصلاح في الجزائر، حتى نستطيع في ما بعد أن نبرز دوره الريادي على الساحة السياسية للشمال الإفريقي، حيث كان هذا المصطلح سمة عصره، رغم تشبع ابن باديس بالأفكار الإسلامية وإطلاعه على خلفيات هذه المصطلحات ذات الطابع الإستعماري، حيث يذكر المؤرخ الجزائري محمد الميلي<sup>(5)</sup> بأن ابن باديس من مواليد نهاية القرن التاسع عشر بتاريخ ديسمبر 1889، نتاج أسرة من أكبر الأسر القسنطينية يمتد نسبها إلى أسرة مالكة لمعز الصنهاجي، وكانت هذه الأسرة ذات "اتصال متين" بالإدارة الاستعمارية، فهي توسطت بين هذه الإدارة والأهالي الجزائريين، فهذا جده مكّي بن باديس قد تحصل على وسام من يد نابليون عام 1864، وأبوه محمد

المصطفى كان عضواً في المجلس الأعلى للجزائر ولكن اتجاه ابن باديس تحدد منذ الوهلة الأولى، بحفظه القرآن الكريم في سن الثالثة عشر من عمره، وتحول بعد ذلك إلى جامع الزيتونة بين سنة 1908 و1913 حيث كانت تونس قد فتحت أعينه مبكراً على العالم الخارجي<sup>(6)</sup>.

هذا التفتح المبكر على العالم الخارجي، جعله يفكر في الذهاب إلى المشرق للحج حيث التقى هنالك بالمصلحين، ذلك ما ذكره زميله وصديقه في النضال الديني والسياسي، الشيخ البشير الإبراهيمي الذي ذكر ما يلي: «كان من تدابير الأقدار الإلهية للجزائر ومن مخبرات الغيوب لها أن يرد علي بعد استقراره بالمدينة المنورة سنة وبضعة أشهر، أي ورفيقي في الجهاد بعد ذلك الشيخ عبد الحميد ابن باديس، أعلم علماء الشمال الإفريقي ولا أعالي، وباني النهضة العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية للجزائر<sup>(7)</sup>».

ومن هذا المنطلق فابن باديس كان حلقة بين التيارات الثقافية والسياسية التي برزت مبكراً في الجزائر، وجيل جديد تشبع بالفكر السياسي التحرري والقومي عقب الحرب العالمية الأولى، مما جعل الحياة الفكرية في المغرب الإسلامي تتأثر بالأفكار الآتية من المشرق الإسلامي عبر التاريخ، ونضجت بشكل كبير في الفترة التي برز فيها الشيخ ابن باديس الذي ساعدته في ذلك عوامل عدة، حركت ذلك التفاعل التلقائي الموجود بين مثقفي الشمال الإفريقي، عن طريق الصحافة والكتب والمجلات، وصولاً إلى ربط علاقات متينة، في مختلف الميادين خاصة الربط البشري الذي تجسد عن طريق إرسال الطلبة إلى تونس بالزيتونة والقرويين بالمغرب بشكل أقل<sup>(8)</sup> من أجل إحياء الروابط التي حاول الاستعمار الفرنسي قطعها ووضع العراقيل أمامها.

وتعود الأصول الأولى للإصلاح في الجزائر، قبل بروز الشيخ ابن باديس إلى تلك النخب المحافظة والمفرنسة المتأثرة بأوضاعها المحيطة بها، كما سبق أن أشرنا إليه، خاصة بعد زيارة الشيخ محمد عبده إلى الجزائر سنة 1903 الذي أثر في بعض العلماء آنذاك وكتلة أخرى تأثرت بالنمط التعليمي الفرنسي، وراحت تطالب بالمساواة وصولاً إلى الاندماج في الثقافة الغربية، إلا أن الحرب العالمية الأولى جاءت بمتغيرات جوهرية من خلال إصدار "جونار" لإصلاحاته سنة 1919 في عهد حكومة "كليمانصو" بترقية الحقوق السياسية للمجندين الجزائريين، استفاد منها زعماء الإصلاح في الجزائر.

وبدا ابن باديس نشاطه العام في الجزائر في مرحلته الأولى، بالاهتمام بالتعليم والحفاظ على الشخصية العربية الإسلامية، ومحاولاته ربط علاقات أخوية مع الحركات الثقافية في الشمال الإفريقي، خاصة تونس التي كانت تربطه معها أواصر متينة، فركز جهوده على العمل الصحفي، ليرز الأخوة العربية والإسلامية، من أجل الحفاظ على الشخصية الجزائرية، فابن باديس حسب الأستاذ رابح تركي، كان وطنيا من الطراز العالي يحب الجزائر والعرب<sup>(9)</sup>.

وقد دلت كتاباته عنهم وعن بلاده بأنها تميزت بالحب والغيرة، ولقد أصدر ابن باديس عدة جرائد في هذه المرحلة مثل جريدة المنتقد في جويلية 1925 والشهاب في 12 نوفمبر 1925، وأصبحت تحمل توقيع شخصي ابتداء من 1926، ليعبر عن آرائه وأفكاره، حيث ظلت لمدة عقد كامل ناطقة باسمه، وتحمل أفكاره الوطنية والتوحيدية<sup>(10)</sup>.

ومن هذا المنطلق كان الجانب العلمي والثقافي والديني في اهتمامه الأول، مفضلا عليها وضعه الاجتماعي وانتمائه الطبقي الذي سبق أن أشرنا إليه، حيث استطاع التوفيق بين دوره الجديد، ووضعه السابق.

ولكي نستطيع أن نتعرف أكثر على شخصية هذا الرجل، فإننا أطلعنا على مواقف معاصرة للذين عاشوا بالقرب منه، فهذا المفكر الجزائري بن نابي في شهاداته عن العصر، وصف لنا منظر الشيخ عند مروره عليه أمام مقهى بن يمين في طريقه إلى مكتبه، حيث كان ينير اهتمامه وكان يربط نظرته إليه من خلال انتمائه إلى تلك الطبقة البرجوازية الجزائرية، صنيعه الإستعمار الفرنسي في نظر مالك بن نبي، ولكنه تدارك هذا الخطأ، وعرف حقيقة هذا الشيخ الإصلاحية، واكتشف قيمته ومكانته فيما بعد<sup>(11)</sup>.

وقدم لنا شريكه وصديقه خير الدين في جميعه العلماء شخصيته بشكل بارز وما خفي عنها، وصولا إلى تزعمه النشاط الإصلاحية، وممارسته العمل السياسي؛ ونقلنا عن جريدة الشهاب نراه يسترسل الحديث ويشير بذراعيه ويشارك بإشارات تخترق الفضاء، وتكسي أحيانا أخرى قوة العظمة والجلالة، ليرز للناس من خلال أسلوبه تنسيقا من عذوبة الكلام وقوة الخطابة التي تحمس من يسمع إليه، وصولا إلى مبتغاه، يرفع الحجاب عن هذا الشعب الذي حاول الإستعمار وضعه على عينيه<sup>(12)</sup>.

ولكي يعتمد على مجهوداته الذاتية في مواصلة نشر أفكاره، أسس المطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة سنة 1925، ليستطيع مواجهة السياسة الإستعمارية بواسطة معركة

الصحافة، ويخاطب من خلالها الإخوة في الأقطار العربية وبلدان المغرب في هذه الفترة، وينشر في صحافته مقالاتهم، ويساند بمجهودات الحركات الوطنية المغاربية أو كما سماها الطبقات السياسية للشمال الإفريقي<sup>(13)</sup>.

حاولنا أن نستقري بعض الظروف التي نشأ فيها ابن باديس، والعوامل التي ساعدته على الجهر بأفكاره، ويحق لنا أن نتساءل عن هوية أفكاره والإطار السياسي العام، الذي نشط فيه ابن باديس، وهل اعتمد على التراث العربي الإسلامي من منطلق العوامل السابقة الذكر؟ وكيف نظر إلى الوحدة السياسية للأمة العربية وبشكل خاص وحدة الشمال الإفريقي؟ وما هي المفاهيم المختلفة التي طرحها في مجال الوحدة السياسية؟ وما هي أنشطته المختلفة في ذلك؟ وهل استطاع ربط علاقات مع إطارات الحركة السياسية للشمال الإفريقي؟ وما هي أبرز القضايا التي حاول علاجها وأثارها على الرأي العام الجزائري والاستعماري؟ وما هي الصعوبات التي واجهت ابن باديس في تحقيق نضاله السياسي المتشعب بالروح الوطنية أولاً ثم العربية والإسلامية ثانياً والقيم الإنسانية ثالثاً؟ وهل تمكن من الوصول إلى أهدافه التي أعلن عنها؟ رغم انه حاول ربطها بالجانب الثقافي وترك الوحدة السياسية للأجيال المقبلة.

ذلك ما سنحاول أن نخلله ونناقشه في هذه الدراسة، عن القضايا المغاربية التي شغلت فكر ابن باديس وعبرت عنها أنشطته السياسية، فهو حسب الأستاذ الملي قد استلهم أفكاره من محمد صلى الله عليه وسلم رجل القومية العربية الذي يعتبر رسول الإنسانية<sup>(14)</sup>.

1- نظرة ابن باديس للإطار الجغرافي والتاريخي للشمال الإفريقي: لقد برزت شخصية الشيخ ابن باديس بشكل أثار انتباه الإدارة الإستعمارية التي كانت تراقب كل الشخصيات الوطنية، إلا أنها لم تحاول أن تكشف عن خططها الاستعمارية إلا بعد تأسيس جمعية العلماء حيث أصبح ابن باديس رئيسها، بعد انتخابه من قبل مجموعة من العلماء الحاضرين في 05 مايو 1931م؛ وتعود المبادرة في حقيقة الأمر إلى ابن باديس رغم غيابه أيام اجتماع العلماء، بمختلف أطيافهم بنادي الترقى<sup>15</sup>.

ولذلك فإن ابن باديس أدرك حقائق الأمور في مواجهة الإدارة الاستعمارية بنفس أسلحتها وتأسيس جمعية دينية ثقافية، تحافظ على هوية الشعب الجزائري مستغلا بعض التشريعات الاستعمارية وهو ما جعل ابن باديس يفهم التاريخ بأنه يتمثل في العودة إلى الماضي

والتراث المشترك بين المغاربة من خلال ندواته وكتابات الصحافية، لأن المدرسة الاستعمارية بقيادة مفكرها ومؤرخها، حاولوا إيهامنا بأن الجمعية هي نتاج إرادة فرنسا<sup>(16)</sup>.

ولكننا في غالب الأحيان، اعتبرنا ضحايا المدرسة الاستعمارية التي كانت تعلم أبائنا وأجدادنا، بأن فرنسا هي أمنا، وأن الغالين هم أجدادنا، ولكن حقيقة الأمر، فإن العلماء في نظرنا يعتبرون امتدادا لهوية الشعوب المغربية، انطلقوا من البعد التاريخي للمنطقة<sup>(17)</sup>. مما يجعلنا ندرك أهمية نظرة ابن باديس لقضايا الوحدة، خاصة وحدة الشمال الإفريقي في إطاره الجغرافي والتاريخي.

أ - تحديد الإطار الجغرافي ودوره في وحدة الشمال الإفريقي: لقد حاول الإستعمار الفرنسي بعد احتلاله للجزائر عام 1830 أن يجعل منها بوابة إفريقيا، تمهيدا لفرض هيمنته على الأرض الإفريقية، وبالرجوع إلى القرن التاسع عشر، نجد أن فرنسا قد دعمت وجودها على الأرض من أجل ربح معركة الجغرافيا مع الأمير عبد القادر، ودخلت معه في مفاوضات عديدة، اعترفت له بالجزائر آنذاك، باستثناء الجزائر العاصمة وعنابة وجيجل وقسنطينة ومستغانم ووهران، وعندما تيقنت من ضعف المقاومة الجزائرية توغلت في المناطق الداخلية مرتكبة المجازر الرهيبة مثل ما وقع في قسنطينة والزعاطشة ومنطقة الظهرة بمستغانم سنة 1845<sup>(18)</sup> واستمرت آلة الحرب الفرنسية تستخدم القوة إلى غاية بداية القرن العشرين، وهي الفترة التي برز فيها الشيخ ابن باديس.

ولهذه الغاية، فابن باديس رغم كونه مصلحا، ونشأ في ميراث عائلي قريب من الإدارة الاستعمارية، إلا أنه اشتغل بالسياسة وتأقلم مع محيطه المحلي والإقليمي، وأنه زار بلدانا عديدة، واحتك كثيرا بعلماء تونس وحركتها الوطنية، متحديا الشروط الفرنسية في العمل السياسي، لأنه ورد في الفصل الثالث من القانون الأساسي للجمعية ما يلي: "لا يجوز للجمعية بأي حال من الأحوال أن تخوض أو تتدخل في المسائل السياسية"<sup>(19)</sup>.

لذلك نجده يركز على الإطار الجغرافي لوحدة الشمال الإفريقي ووحدة شعوبه الدينية والثقافية والإثنية، عكس نظرتة إلى أقطار الخلافة الإسلامية في العهد العثماني، فهو كان عالما من مجموع علماء الجزائر الذين شاركوه في الفكر والتوجه أمثال مبارك الميلي وتوفيق المدني والشيخ عبد الرحمان الجيلالي وغيرهم، الذين كتبوا عن جغرافية المغرب الإسلامي موضحين

الإطار الجغرافي المشترك لبلدان المغرب الإسلامي رافضين أطروحة الاستعمار الداعية بأن بلاد المغرب هي امتداد للبحر المتوسط.

لذلك نجد العلماء الإصلاحيين قد ركزوا على الجانب الجغرافي وقدموا لنا مساهمات كبيرة، وكانت الوفود الطلابية تتجاز الحدود المصطنعة، متحدية قوانين الأندليجانا، هاته الأخيرة؛ حاول المشرع من خلالها وضع حدود بين القرى والمدن في الجزائر، ما بالك بأقطار المغرب! لذلك فجمعية العلماء عملت على وضع أسس سليمة للوحدة الجغرافية، بتحرير أذهان السكان ودعوتهم بالرجوع إلى تاريخهم وحضارتهم، ذلك ما رآه الدكتور محمد البهي، حيث اعتبر أن جمعية العلماء «حركة لتحرير الوطن الإسلامي من الإستعمار الفرنسي ومحاربة الاتجاه الاستعماري في التفكير»<sup>(20)</sup>.

وابن باديس قد قرأ أيضا جغرافية بلاد المغرب قراءة تاريخية، ويذكر ابن باديس طرح هذه القضية في العديد من المرات بجريدة الشهاب موضحا تضمه من التقهقر إلى الوراء في قوله: «هل من واجبتنا أن نطأ رءوسنا أمام الأعداء لنصل في تلك النتائج التي عرفتها الأندلس وبلدان إسلامية أخرى التي ولت الأدبار أمام العدو وأبعدت أسلحته عنه إلى الأبد»<sup>(21)</sup>، وكان ابن باديس يحذر مثقفي ورواد الحركة السياسية في بلدان المغرب، بخطورة إبعاد الجغرافيا عن الصراع مع الإستعمار، ليحاول التوصل إلى إقناع تلك التيارات إلى أهمية الوحدة الجغرافية التي تعتبر عاملا أساسيا في التحرر من الهيمنة الإستعمارية، ذلك ما حاولت فرنسا تجسيده على أرض الواقع بإبعاد أية فكرة عن الموضوع، مثلما ما حدث لنجم شمال إفريقيا بابتعاد المراكشيين والتونسيين بدعوى أن مصيرهم لا يشبه مصير الجزائريين لأنها جزءا من فرنسا في نظرهم<sup>(22)</sup>.

اضطر تصرف النخب السياسية في المغرب وتونس الجزائريين إلى الاعتماد على أنفسهم في مواجهة السياسة الفرنسية، ما جعل ابن باديس يتفطن إلى ضرورة دراسة التاريخ والجغرافيا في برامج الجمعية من خلال التعليم الحر الذي مارسه الإدارة الاستعمارية<sup>(23)</sup>، رغم الضغوط التي قامت بعرقته بمختلف التشريعات والمضيقات.

ب- تحديد الإطار التاريخي ودوره في وحدة الشمال الإفريقي: لقد فهم الشيخ ابن باديس منذ الوهلة الأولى أنه يعيش في وطن جريح، يخضع للسيطرة الاستعمارية ونظرتها للجزائريين على أنهم مجرد أهالي مسلمين فرنسيين منذ صدور قانون الأحوال الشخصية

سيناتوس كونسلت 1865؛ إذ لا يمكن للجزائريين الحصول على الجنسية الفرنسية إلا إذا تخلوا عن أحوالهم الإسلامية<sup>(24)</sup>. لذلك ركز ابن باديس على تحديد الإطار التاريخي للجزائر في إطار محيطها الطبيعي؛ فهو قد اتصل منذ مراحل الأولى برواد النهضة الثقافية والحركات السياسية المغاربية.

فابن باديس ركز على تحديد الإطار التاريخي للجزائر بأنها ليست فرنسا: «... إننا فتننا في صحف التاريخ وفتشنا في الحالة الحاضرة فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة متكونة وموجودة...، ثم إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا حتى لو أرادت، ولا تريد أن تصبح فرنسا...، ولا تريد أن تندمج ولها وطن محدد ومعين هو الوطن الجزائري بمحدوده المعروفة»<sup>(25)</sup>.

ويوضح لنا ابن باديس آراءه حول الموضوع، إنه مقتنع بشكل يقيني، إن الجزائر جزء من الشمال الإفريقي العربي الإسلامي، حيث كتب مقالا معروفا حلله العديد من المؤرخين والدارسين واعتبروه قمة فهم ابن باديس لواقعه: "لن أعيش" حيث وضع موقعه من الوحدة الإسلامية التي اعتبر فيها الجزائر جزءا لا ينفصل عنها: "نعم أنا لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عزيزة علينا، هي دائما منا على بال ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص نعتقد أنه لا بد أن تكون قد خدمناها، وأوصلنا إليها النفع والخير عن طريق خدمتنا لوطننا الخاص، وأقرب هذه الأوطان إلينا هو المغرب الأدنى والمغرب الأقصى اللذان ما هما والمغرب الأوسط إلا وطن واحد ولغة وعقيدة وآداب وأخلاقا وتاريخا..."<sup>(26)</sup>.

إن هذه العبارات الواردة في جريدته الشهاب، لتعبّر لنا عن ذروة مفهوم ابن باديس للإطار التاريخي الذي حدده كمنطلق نحو الوحدة الإسلامية التي له نظرتة الخاصة لها كما سيأتي ذكره في العناصر المقلبة.

ورجعوا إلى الإطار التاريخي، نجد أن العلماء وعلى رأسهم ابن باديس قد استلهموا هذه الأفكار من النهضة الإصلاحية التي ظهرت مبكرا بتونس ومراكش، ابتداء من بروز حركة الشبان التونسية وأعلام الفكر المغربي لوجود مراكز إسلامية بالزيتونة والقرويين، وكان أبرز هؤلاء الأعلام الذين أحيوا الفكر الإسلامي خير الدين باشا مؤسس المدارس الحرة منذ سنة 1875 وعبد العزيز الثعالبي مؤسس المدرسة الخلدونية في مطلع القرن العشرين وعلى باشا حامية الذي طور حزب التقدم التونسي إلى حزب تونس الفتاة سنة 1908<sup>(27)</sup>، أما المغرب

الأقصى فقد ظهرت فيه الحركة القومية على يد أساتذة جامع القرويين وعلى رأسهم علال الفاسي، وفي خضم هذه الظروف كانت الجزائر تعيش أوضاعا سياسية واقتصادية واجتماعية سيئة جراء السياسة الاستعمارية المنتهجة في الجزائر، حيث فقد المجتمع الجزائري الكثير من مقوماته، وأضحى عرضة لمشايع الطرية المنحرفين والمشعوذين ومناصري فرنسا من "بني وي" حيث أوجد ذلك كله في نفسية ابن باديس رغبة في علاج تلك الأمراض التي ضربت الجزائريين بالرجوع إلى تحديده للإطار التاريخي بوضعه للجزائر في إطارها داخل الشمال الإفريقي، وتجسدت طموحات الشيخ ابن باديس عند تأسيسه لجمعية العلماء التي كان طابعها ديني ولكن ذات أهداف سياسية، أراد من خلالها ممارسة السياسة الشرعية التي تجيز لكل مسلم الدفاع عن بلده.

ولقد وضع المؤرخ الجزائري سعد الله في مقال عن جمعية العلماء والسياسة شارحا مفهوم السياسة ومدى إدراك جمعية العلماء لهذا المصطلح بالتصرف والمشاركة في علاج قضايا المسلمين<sup>(28)</sup> ولأن الجزائريين منعوا من ممارسة العمل السياسي قبل الحرب العالمية الأولى ولكن ثمة عوامل جعلت الجزائريين لمختلف تياراتهم الثقافية والسياسية يهتمون بالنشاط السياسي، خاصة مع صدور إصلاحات 1919، وقيام فرنسا بالاحتفال بذكرى مرور مائة سنة على احتلالها للجزائر، وهو ما جعل الجزائريين يحاولون العودة إلى ماضي الدولة الجزائرية التي قضت عليها فرنسا سنة 1830.

ولقد تأثر الجزائريون أيما تأثر، وهم يرون الغزاة يحتفلون بالذكرى القرنية على احتلالهم الجزائر وهميش الجزائريين، وذلك ما ورد في جريدة إيكودورون اليمينية كاتبة<sup>(29)</sup>: "إن المسلمين أحسوا بصدمة كبيرة اهتزت لها مشاعرهم، وكان رد فعل المسلمين بعث الحركة الإسلامية في شمال إفريقيا من الساحل إلى حدود الصحراء..."، وذكر الأستاذ مراد بأن الحركات السياسية بالبلدين الغربيين اقتسمت نفس المشاعر الوطنية التي انطلق منها الحزب الباديسي<sup>(30)</sup>، لذلك نجد العديد من الباحثين الجزائريين والأجانب يحاولون فهم مبررات ابن باديس في التوجه للعمل السياسي رغم دعواته المتكررة بأنه لا يمارس السياسة التي يفهمها الاستعمار وإنما سياسة شرعية، تقدم البديل الذي حاول طرحه الإدماجيون وطبقات سياسية أخرى حاولت أن تفصل الجزائر عن إطارها المغاربي.

2- مساهمات ابن باديس في تحديد قضايا وحدة الشمال الإفريقي: يذكر الأستاذ رابح تركي في كتابه عن الشيخ ابن باديس بأنه مرّ بثلاثة مراحل في حياته العامة، تبدأ الأولى منذ مجيئه من تونس سنة 1913 وتنتهي سنة 1925 حيث دأب على متابعة التطورات الثقافية والسياسية الحاصلة بالشمال الإفريقي دون التعليق عليها، وفي المرحلة الثانية التي تمتد من 1925 إلى 1930 بدأ يساهم ويهتم بالأمور السياسية التي اطلع عليها سابقا والتي شغلت بال المواطن الجزائري، وكان يتبع سياسة مرنة لإقناع الجزائريين بواقعهم السياسي وصولا إلى أهدافه<sup>(31)</sup>، أما المرحلة الثالثة فتمتد من سنة 1931- تاريخ إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائرية- إلى غاية وفاته في 16 أبريل 1940، فكانت حافلة بالنشاط السياسي وأصبحت له كلمة نافذة في كل الأحداث السياسية<sup>(32)</sup> وقضايا المسلمين ومنها قضايا الشمال الإفريقي.

أ- القضايا العامة التي شغلت الشيخ ابن باديس: إن تتبعنا لحركية اهتمام الشيخ ابن باديس بقضايا المغرب العربي، هذا المصطلح لم يكن مجسدا بالصورة التي نراها اليوم وإنما كان مصطلح الشمال الإفريقي، الأقرب إلى الجزائريين نتيجة التأثير الاستعماري على مفاهيمهم، ولذلك فابن باديس حاول قدر المستطاع ربط هذا المفهوم في إطار الوحدة العربية والإسلامية. وعند إطلاعنا على الكثير من الدراسات التي عاجلت موقف ابن باديس من قضايا بلاد المغرب، وجدناه يهتم بقضايا عديدة أثارت انتباه الرأي العام الجزائري وبلدان المغرب، وبشكل أقل بلدان المشرق الإسلامي وأوربا.

وأهم تلك القضايا التي سنحاول أن نفهم قراءة الشيخ ابن باديس لها وأثارت انتباهها كانت كالآتي:

\* ظهور الأحزاب السياسية بتونس والمغرب وليبيا وعلاقتها بالحركة الإصلاحية الجزائرية.

\* قضية الظهير البربري للمغرب الأقصى.

\* الانشقاق السياسي الحاصل بتونس.

ورجوعا إلى القضايا التي أثارت اهتمام ابن باديس، نجد أنفسنا أمام كم هائل من المقالات والتحليلات التي تجعل من جمعية العلماء ذات التوجه الديني والثقافي مجبرة على اقتحام العمل السياسي وتجاوزها للمبادئ التي تأسست من أجلها، لأنها لا تتدخل في الشؤون السياسية.

ويبدو أن هذا المبدأ لم يحترم على الإطلاق حسب ما يذكر سعد الله: "فقد وجدناها تخوض في مختلف القضايا التي تهم مستقبل المغرب العربي، السياسية منها والثقافية"<sup>(33)</sup>.

لذلك نجد أنفسنا أمام وقائع وحقائق تتعلق بمواقف الشيخ ابن باديس من القضايا العامة التي طرأت على ساحة الشمال الإفريقي محاولين أن نربط خيوطها، بما استتجنه من مختلف الدراسات عن هذا الميدان ومقالات بعض أعداد جريدة الشهاب والبصائر الأولى، أي في الفترة الثالثة من حياته العلمية والسياسية التي ارتبطت بنشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وطبعت شخصية ابن باديس.

نجد مثلاً المؤرخ الفرنسي جوليان يدرس هذه المواقف بشكل دقيق وملفت للانتباه في دراسته عن شمال إفريقيا تسيير وتطور القوميات فيها موضحاً<sup>(34)</sup>: "كان العلماء هم الذين أيقظوا الرأي العام الأهلي من سباته الذي شبهه شاعر عربي فيما بعد بغرفة الانتظار للموت، ولهم مذهب ديني يصلح أساساً لمطامع وطنية"، ويضيف جوليان عن شخصية بن باديس قائلاً: "كان الشيخ ابن باديس أقوى شخصية إسلامية مغربية".

فالقضية الرئيسية التي شغلت بال ابن باديس هو ذلك التطور السياسي الحاصل ببلدان الشمال الإفريقي، حيث كان على اطلاع بمجرياته؛ ذلك ما أوضحه في جرائده وجرائد الجمعية بشكل مستمر، حيث الجبهة السياسية كانت شاملة في الأقطار المغاربية كلها، حيث تباينت السياسة الاستعمارية الفرنسية والإيطالية من بلد إلى آخر، وفرضت شروطها السياسية وقوانينها المختلفة منفصلة تماماً عن الجزائر.

فظهور الأحزاب السياسية لهذه البلدان كان بمثابة الدافع القوي لابن باديس ليحرك به الساحة الجزائرية التي لم تبدأ بها الأحزاب بشكل واضح إلى في الثلاثينيات من القرن العشرين، رغم تأسيس خالد حركة سياسية وتبعه مصالي الحاج بإنشائه لنجم شمال إفريقيا في سنة 1926<sup>(35)</sup>، أما ابن باديس فكان على اطلاع على أحزاب سياسية برزت بشكل قوي ومنظم بالبلدين المجاورين، تونس والمغرب وبشكل أقل ليبيا، وكانت تونس سباقة في هذا الميدان بظهور حزب قومي قوي وهو الحزب الدستوري القديم، وكانت أبرز شخصية فيه عبد الرحمن النعالي "حيث تشبث الدستوريون القدماء بفكرة الإصلاح ورفضوا التعاون مع فرنسا، وكانوا من أشد أنصار الوحدة العربية، فوضعوا نصب أعينهم القيم المعنوية والإلهامات الروحية"<sup>(36)</sup>.

لذلك فالحركة التونسية الوطنية كانت على اتصال بجمعية الإصلاح الجزائرية من خلال الوفود الطلابية الجزائرية نحو تونس، والتونسية نحو الجزائر التي درست بجامعة الجزائر (الحقوق والطب... الخ) أمثال المنجي سالم والحبيب ثامر وشخصيات دينية أمثال محمد الطاهر بن عاشور<sup>(37)</sup>.

وسبق لابن باديس أن اطلع على نشاط النخبة التونسية المدافعة عن الجزائر التي تواجدت في بداية القرن 20، وكان لها ثقلها على الساحة السياسية التونسية، وركزت في نضالها على الأخوة بين تونس والجزائر، وذلك ما ورد في الرسالة التي بعثت بها اللجنة التونسية الجزائرية لمؤتمر السلم العالمي المنعقد في فرنسا بباريس عام 1919 مذكرة الرأي العام الدولي بالأسس الحقيقية لوحدة الشمال الإفريقي، ونضاله الطويل عبر التاريخ. وأهم ما ورد فيها "إن الجزائر وتونس كانتا تشكylan منذ الفتح الإسلامي وطنا واحدا"<sup>(38)</sup>.

أما ما كان يجري بالمغرب الأقصى فلم يكن بعيد عن انشغالات الشيخ ابن باديس؛ خاصة مع تنامي مد الحركة الوطنية المغربية بقيادة علال الفاسي ومحمد بن حسن الوزاني اللذان يظنان مختلفين عن التوجهات الأساسية لابن باديس<sup>(39)</sup>، لكن ذلك لم يمنع بن باديس بالإشادة بمجهود علال الفاسي في الإصلاح وضرورة بناء شمال إفريقي موحد، يستطيع المغاربة من خلاله مواجهة السياسة الفرنسية التي دأبت منذ مدة على محاولة فصل الجزائر عن قضايا جيرانه. ويوضح المؤرخ الفرنسي الترابط القوي بين علال الفاسي والحركة الإصلاحية الجزائرية موضحا بأنه: "كلما تمت دعاية العمل المغربي إلا وتقدمت شخصية علال الفاسي خطوة إلى المرتبة الأولى...، وكان مصلحا متأثرا بالثقافة الإسلامية، وظل في نفسية المغاربة بطل الإسلام المثالي، ولم يكن له ثقافة غربية، وبالعكس كانت غاياته تتفق مع غايات العلماء الجزائريين ويرمي عمله إلى إقحام الحركة الوطنية المغربية في مجموعة حركات الوحدة العربية"<sup>(40)</sup>.

ذلك لأن هذا الحزب كان طابعه السياسي واضحا ولم يكن جمعية دينية، فقد أسس المدارس الحرة والقرآنية، وطالب بإعادة النظر في جامع القرويين وإعادة تنظيمه على أساس محكم وعصري، وهو ما يتفق في نظرنا مع مشروع الشيخ بن باديس، لأن علال الفاسي حسب ابن باديس كانت توجهاته شبيهة بجمعية العلماء في علاقتها بالتيارات اليسارية، فجمعية العلماء شاركت إلى جانب الحزب الشيوعي في المؤتمر الإسلامي المنعقد في الجزائر سنة 1936

مع رفضها المطلق لسياسة التجنيس والإدماج التي دعا إليها فرحات عباس أولا في الثلاثينيات، ثم تبعه الحزب الشيوعي في الأربعينيات من القرن 20، عندما أضحي صاحب مبادرة: الأمة الجزائرية لم تنضج بعد أو هي في طريق التكوين وفق أطروحة منظر التيار الشيوعي الفرنسي طوماس تورس، الذي طالب بجزائر حرة وسعيدة، متحدة اتحادا أخويا مع الشعب الفرنسي. لذلك حاول التيار الشيوعي في الجزائر بناء مجتمع متعدد الثقافات. وحاول من خلال أطروحاتهم عزل الشعب الجزائري عن أصالته وتياراته القومية المتمثلة في حزب الشعب وجمعية العلماء، لأن هذا الشعب وقف بمختلف توجهاته إلى جانب الحركة الوطنية المنطلقة من ثوابت الشعب الجزائري، الإسلام والعروبة<sup>(41)</sup>، لذلك انشق الجناح اليساري في حزب الاستقلال المغربي عن علال الفاسي بزعامة الوزاني المتأثر بالثقافة الغربية، ولهذه الغاية عمل علال الفاسي على ربط اتصالات سياسية مع الجزائريين والتونسيين في نضاله السياسي المشترك مع الملك محمد بن يوسف في الدفاع عن الإسلام، كما سيأتي شرحه في قضايا ارتبطت بالمغرب الأقصى. ولقد اهتم ابن باديس أيضا بنضال الشعب الليبي رغم البعد الجغرافي واختلاف الاستعمار الإيطالي عن الفرنسي، إلا أننا نجد في مقالاته عن كفاح الشعب الليبي يشيد بعبقرية المجاهد عمر المختار، وقد هاجم الاستعمار الإيطالي، وكان للشيخ البشير الإبراهيمي فيما بعد دورا بارزا في ربط كفاح الشعب الليبي بما يجري في الجزائر من خلال كتاباته في جريدة البصائر الثانية التي كان رئيس تحريرها حسب ما يذكر الدكتور سعد الله<sup>(42)</sup>.

أما القضية الثانية التي أثارت انتباه ابن باديس والتي جاءت مقترنة ببروز جمعية العلماء هي قضية الظهير البربري بالمغرب الأقصى، حيث حاول الاستعمار الفرنسي إشعال نار الفتنة بين أبناء المغرب ومحاولة عزهم عن ماضيهم الإسلامي وعن توجهات ملكهم الصاعد محمد بن يوسف المعروف بمحمد الخامس، وقام ابن باديس بمجهودات كبيرة لشرح مواقفه من هذه القضية في جريدتي الشهاب والبصائر منذ صدور المنشور المتعلق بالظهير البربري في 16 مايو 1930، وهي محاولة فرنسية لفصل المغاربة عن دينهم وماضيهم الإسلامي، يقول جوليان: "وكانت للحملة على الظهير البربري انعكاسات عميقة، فقد انطلقت الحركة في مساجد سالا، حيث ظل الدعاء أيام الخطر "يا لطيف" يذكر إثر الصلاة منتهيا بهذه العبارة: "يا لطيف أنقذنا من معاناة القدر السيئة ولا تفصلنا عن إخواننا البربر"<sup>(43)</sup>.

يدفعنا ذلك إلى استنتاج مدى تشابه الوضع في الجزائر في الثلاثينيات من القرن العشرين، حينما كانت فكرة التجنيس والإدماج على أشدها بمؤازرة فرنسا الاستعمارية التي حاولت أن تفصل الجزائريين عن ماضيهم التاريخي وتربطهم بالوطن الأم "فرنسا" حسب اعتقادها؛ رغم أن جمعية العلماء شاركت بشكل فعال في المؤتمر الإسلامي المنعقد في 07 جوان 1936<sup>(44)</sup>، وكأنه يبدو لنا أنها موافقة على ما جاءت به حكومة الجبهة الشعبية وأطروحات التيار الإدماجي في الجزائر، إلا أن الشيخ ابن باديس كان واضحاً في التفريق بين الجنسية القومية والجنسية السياسية، حيث أوضح ابن باديس ذلك في جريدة الشهاب، مذكراً بأن الجنسية السياسية هي "أن يكون للشعب ما للشعب من حقوق مدنية واجتماعية وسياسية مثل ما كان على الأخرى من واجبات اشتراكا في القيام بها لظروف ومصالح ربطت بينهما... وأما بعد فتحت الأمة الجزائرية لنا جميع المقومات والمميزات لجنسيتنا القومية، وقد دلت تجارب الزمان والأحوال على أننا من أشد الناس محافظة على هذه الجنسية القومية...<sup>(45)</sup>".

وعلق على هذا التحليل العديد من الباحثين الجزائريين أمثال محمد الملي الذي نقل نصوصاً ياكماها عن جريدة الشهاب توضيحاً لهذا المفهوم الشامل، وأيضاً الدكتور إبراهيم مهديد عندما أوضح "بأن الجنسية القومية في فهمهم هي شاملة للمقومات والمميزات التي يتمتع بها الشعب، والمتمثلة في اللغة التي يعبر بها ويتأدب بأدائها، والعقيدة التي تبني فيها حياتها على أساسها والذكريات التاريخية التي تعيش عليها<sup>(46)</sup>".

أما الجنسية السياسية فهي في نظرنا مكتسبة، وهذا ما تؤكدته حالياً الدراسات السوسيولوجية والثقافية بحصول كثير من الأفراد في العالم الإسلامي على جنسيات الدول الأوروبية والأمريكية دون تخليهم عن أحوالهم الشخصية وارتباطاتهم ببلدانهم الأصلية، بل عملت الدول على وضع آليات الجنسية المزدوجة كما هو الشأن الآن بالنسبة للجزائريين المولودين بفرنسا. وهو بحق ما ذهب إليه ابن باديس آنذاك، ووضع معالم الفرق بين الجنسيتين. إن تطرقنا لهذا الموضوع إنما لارتباطه بوضع المسلمين المتشابه بين أقطار المغرب، خاصة وأن قصة الظهير البربري ارتبطت بوحي الوطن المغربي، وأدجت المغرب المسلم في الوحدة الإسلامية جاعلة جميع المسلمين يتقاسمون إخوائهم المغاربة محتهم<sup>(47)</sup>.

ولذلك اعتبرت صحف الجمعية الظهير البربري، محاولة استعمارية للإساءة إلى وحدة المنطقة والطنن في الإسلام والثقافة العربية<sup>(48)</sup>، لأن ذلك ارتبط بعقد المستعمرين لمؤتمراتهم

المسيحية أو الفكرية والتاريخية حسب اعتقادهم، شارحين في دراساتهم تأثر المغاربة بالفكر الأوروبي، وأن فرنسا قد نجحت في تطوير عقلية المغربي، وبرز للعيان دور المبشرين والقساوسة الحاقدين على الإسلام، محاولين فصل العنصر البربري في بلاد المغرب عن العرب، مثل ما حدث في الجزائر من خلال القوانين الصادرة عام 1874، والتي منحت للجماعة (تاجمت) ورخصت للقاضي الفرنسي بالاحتكام إلى العرف القبائلي<sup>(49)</sup>.

يجعلنا ذلك نعتقد مدى دفاع الشيخ ابن باديس عن المغاربة بتاريخهم الإسلامي وعدم فصلهم عن إخوانهم في بلاد المغرب، وبالرجوع إلى مقالات الشيخ في جريدة الشهاب ندرك الأهمية التي حاول ابن باديس إثارتها لدى الرأي العام الجزائري، بأن جمعية العلماء تدافع هي أيضا عن قضايا أبناء الشمال الإفريقي.

وكم تألم ابن باديس من الانشقاق السياسي الحاصل في تونس عام 1934 في صفوف الحزب الدستوري، ولكن بشكل أقل أهمية من الموضوع الخاص بالمغرب الأقصى وذلك لخصوصيات سياسية للإخوة التونسيين، لكن كتاباته في الشهاب والبصائر تبين لنا موقفه من ذلك الصراع، فهو يتعاطف إلى حد بعيد بقيادة الدستوري القديم، خاصة المناضل الكبير عبد الرحمان الثعالبي لأن ابن باديس كان يعتبره مصلحا تونسيا، ورافقت تحركاته موقف الجمعية المؤيد للعمل المشترك رغم خلافه مع الدستوريين الجدد<sup>(50)</sup>.

ونجد ابن باديس أكثر ميلا للشيخ الثعالبي لمبادئه المؤيدة للإصلاح وإخلاصه لتاريخه الإسلامي، وسافر ابن باديس إلى تونس عند عودة الثعالبي في 05 جويلية 1937 بتحتيته باسم الجمعية.

وبهذه المناسبة جرت في تونس احتفالات خاصة باستقبال ابن باديس أيضا، وتحدثت الصحافة الفرنسية على أن الزعيمين يتآمران على الوجود الفرنسي، وأتهما يعملان على وحدة المغرب العربي<sup>(51)</sup>.

وعموما فالشيخ ابن باديس لم يكن عامل فرقة بين الأقطار المغربية، إنما حاول جمع كلمتها حول ماضي هذه البلدان وضرورة التثبث بتاريخها العربي الإسلامي في إطارها الجغرافي والتاريخي كما سبق أن أشرنا له في النقاط السابقة، وهي مساهمات من الشيخ ابن باديس يمكن استخلاصها بعد جهد جهيد لإعادة قراءة ما كتبه حول الموضوع من خلال دروسه، وما نشره في الجرائد المختلفة التي كانت تعبر عن أفكاره، أو التي كانت اللسان

الناطق باسم الجمعية، وقد نجد هنالك فرقا واضحا فيما كان يكتبه ابن باديس من أفكار خاصة به في جريدة الشهاب وما كان ينشر رسميا في جريدة البصائر. وهذا ما يثبت لنا أننا بحاجة إلى بحوث أكثر عمقا للوصول إلى الحقائق التاريخية والخروج بنتائج مغايرة لتلك التي حاول أنصار المدرسة الاستعمارية رسمها عن ابن باديس وجمعيته الإصلاحية مثل ما يذكر المؤرخ الجزائري سعد الله<sup>(52)</sup>.

ب- القضايا الوجودية التي شغلت الشيخ ابن باديس في وحدة الشمال الإفريقي: إن الباحث عن انشغالات الشيخ ابن باديس بالقضايا الوجودية لبلدان الشمال الإفريقي، أو ما يعرف اليوم المغربي العربي؛ يجد صعوبة في الوصول إلى تصور واضح له نظرا لاستخدامه عدة طرق لمراوغة الإدارة الاستعمارية التي كانت تراقبه أيما مراقبة وتضع العراقيل وتسبب القوانين لمنع التدريس واستغلال المساجد مثل سياسة ميرانت- ومرسوم ميشال<sup>(53)</sup>، فلذلك كان ابن باديس في مواجهة عامة مع فرنسا، بل في كثير من الأحيان كان يتوعد للحاكم العام أو بعض المسؤولين ويتجنب مواضيع تثير حساسية فرنسا<sup>(54)</sup>، مثل إبداء رأيه في مشاركة أبناء الشمال الإفريقي في الحرب العالمية الثانية، إلا أننا قد اكتشفنا عدة تصورات للشيخ بن باديس حول مفاهيم الوحدة ومجالات تطبيقها، فهو يفرق بين الواقع المر الذي تعيشه الأمة ككل، سواء منها المحلية بذكره في العديد من المناسبات كشعار الأمة الجزائرية، كما أوضحه في جريدة الشهاب، وأحيانا ينطلق من مفهوم اشد عمقا بمخاطبة الجزائريين بمفهوم الأمة العربية والإسلامية، ذلك ما ذهب إليه الأستاذ شريط أمين حينما حلل إشكالية هذه الجدلية، موضحا أن ابن باديس كان يتحاشى إدخال جمعية العلماء في صراع مع فرنسا، لذلك لم يكن يكتب في البصائر مما يعكس ذلك الجو، في حين كان يكتب ويحلل آراءه السياسية في جريدته الشهاب التي كانت أكثر وضوحا لمواقف بن باديس<sup>(55)</sup>.

لذلك سنوضح وجهة نظر ابن باديس في بعض التجارب الوجودية، منها:

- نظام الخلافة الإسلامية وعلاقتها بوحدة الأمة الإسلامية.

- نضال أرسلان في سبيل إرساء الوحدة العربية.

- الوحدة السياسية للشمال الإفريقي وصعوباتها.

وغيرنا من ذلك أن نتعرف على مجهودات ابن باديس وأنشطته المختلفة في حقل التدريس وعقد الندوات وإلقاء المحاضرات وتحرير المواضيع في الجرائد والصحف لتوجيه عدة رسائل إلى قرائه ومستمعيه.

لقد تأثر ابن باديس تأثراً بالغاً كغيره من المسلمين بسقوط الخلافة الإسلامية عام 1924م، عندما قام أتاتورك بإلغائها، لكن المتبع لتصريحاته ومقالاته، يلاحظ تصوراً جديداً لم يعهده المفكرون وعلماء الإسلام التقليديين منهم والمصلحين، حيث كانت وجهة نظره مغايرة، بل ذهب إلى تأييد أتاتورك لأنه وضع حداً لخلافة زائفة، لأنها لم تكن تمثل الإسلام الحقيقي، ولأن أتاتورك في نظر ابن باديس أسقط نظاماً حكومياً خاصاً به، ولأن الخلافة الحقيقية تهدي بنظام الشورى وتؤول لأهل الحل والعقد، وهو الأمر الذي لم تجسده السلطة العثمانية<sup>(56)</sup>. ولذلك فابن باديس كان له أطروحات جد مغايرة للمشاركة حول سقوط الخلافة واعتبر من جهته أن أتاتورك منقذ تركيا، رغم بعض السلبات واختلافه معه حول بعض الجوانب الخاصة بالتراث المشترك بين المسلمين<sup>(57)</sup>، وأن ابن باديس كان يؤمن بالجماعة المسلمة المختارة. مما لا شك فيه أن ابن باديس كان متأثراً بالفكر القومي الإسلامي ذو الطابع التحرري، حتى ولم يجاهر به، نظراً للظروف التي كانت تمر بها الجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي ورغم وجود تيار ثوري استقلالي ببلادنا، كان يجاهر بمواقفه منذ مجيء حركة النجم ثم حزب الشعب بقيادة مصالي الحاج الذي كان أكثر وضوحاً في طرحه لقضية التحرر والاستقلال، لذلك لا ينبغي لنا كباحثين عن الحقيقة التاريخية أن نتجاهل دور ابن باديس في هذا المجال وإشارات المتعددة حول الموضوع، ذلك ما ذكره حول موضوع استقلال الجزائريين من وجهة نظره الخاصة في جريدته الشهاب مذكراً: "ستمتع الجزائر باستقلال واسع وتستطيع فرنسا أن ذاك أن تعتمد عليها كما تستطيع أمه حرة أن تعتمد على أمه أخرى، فهذا الاستقلال كما نتصوره، لا الاستقلال الدامي والحرق مثلما ما يمثل خصومنا المجرمون..."<sup>(58)</sup>.

ومن هذا المنطلق نستطيع أن نتوصل إلى وجهة نظر ابن باديس حول إشكالية الخلافة المركزية، بل يفضل على أنقاضها الوحدات السياسية القطرية، ولم يعد ابن باديس في آخر مراحل تفكيره مقتنعاً بالخلافة الشاملة لكافة المسلمين وإنما بالحفاظ على الثوابت المشتركة بالرجوع إلى الحكم الإسلامي لكل دولة بصفة مستقلة<sup>(59)</sup>.

وبإعادة قراءة متأنية لما كتبه في جريدته الشهاب عن موضوع الخلافة، فقد فضل إرساء مفهوم جماعة المسلمين، لأنها في نظره هيئة تضم العلماء وذوي التجربة والخبرة، مهمتهما دراسة شؤون المسلمين على أساس الشورى، تنشأ هذه الهيئة على مستوى كل دولة<sup>(60)</sup>.  
ولذلك يقول على الأقطار العربية التي تتمتع بقسط من الحرية لتتصل فيما بينها وصولاً إلى وحدة مشتركة في المبادئ، ولكنه يعتقد على صعوبة الوحدة السياسية فيما بينها لاختلاف الظروف التي تحكم هذه الشعوب ووقوع معظم هذه البلاد تحت سيطرة الاستعمار فهو في كثير من كتاباته وتصريحاته يميل نحو الوحدة القطرية، ويتذرع أحياناً بكونه مصلحاً وليس سياسياً، عندما يصطدم ببعض العراقيل التي سبق أن أشرنا لها. ونراه في العديد من المناسبات ينطلق من الحقل الإيديولوجي العربي الإسلامي، تحت تأثير النهضة العربية حيث اعتبر زعماءها، وبخاصة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده اللذان اعتبرا الاستعمار إنما جاء لخاربة الإسلام، "ولهذه الغاية طالب بإصلاحات سياسية ذات طابع ديني"<sup>(61)</sup>.

ولهذه الغاية كانت تربط ابن باديس علاقات مع منظر الوحدة العربية، شكيب أرسلان الذي كان مستقراً بأوروبا، وقد أشاد به ابن باديس في العديد من المناسبات، فأرسلان كان مهتماً بشؤون العرب والشمال الإفريقي، حيث كان يرأس قادة الجزائر أمثال مصالي الحاج والشيخ بن باديس، وحسب ما يذكر الأستاذ سعد الله، فإن اسمه ارتبط بقضايا المغرب العربي، خاصة نشاطه السياسي المتجسد في كتاباته بجريدته الحرية بالفرنسية "الأمة العربية" حيث أشاد بنضال شعوب الشمال الإفريقي<sup>(62)</sup>.

ويضيف سعد الله موضحاً تأثر ابن باديس بالأفكار الوحدوية لأرسلان حيث كان يكتب عنه وينشر إعلاناته، خاصة عن جريدة الأمة العربية، لتعريفها وإعطاء صورة عنها للقارئ الجزائري<sup>(63)</sup>.

كما تأثر ابن باديس بأرسلان حول مفهومه للوحدة، فهو يرى بأن الوحدة القومية والأدبية ممكنة التحقيق، بل هو واقع نعانیه، وإنما الوحدة السياسية لا تكون إلا بين شعوب تسوس نفسها بنفسها، فتضع خطة تسير عليها في علاقاتها مع غيرها من الأمم، إنما الشعوب العربية مغلوبة على أمرها لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، مما يجعل الوحدة السياسية بين الشعوب يستحيل تحقيقها في هذه الظروف، وكان ابن باديس يستدل في ذلك بتجربة أرسلان، الرجل العملي والخبير بالعرب،

ويختم رأيه عن هذه القضية موضحاً: "هذا رأينا في الوحدة السياسية بين الشعوب العربية، ونحن نعتقد أنه هذا رأي جميع إخواننا العاملين في هذا الشمال..."<sup>(64)</sup>.

وحينما يتعلق الأمر بالبلدان المجاورة له في إطارها الجغرافي والتاريخي الذي سبقت الإشارة إليه في مواضعنا السابقة والمعروفة في وقتنا الحالي بشعوب المغرب العربي، كانت هي الأخرى تتن تحت وطأة الاستعمار، ولكنها كانت أقرب لابن باديس من غيرها. فهو قد عرفها عن قرب كتونس واتصل ببعض العلماء والمتقنين والسياسيين بليبيا والمغرب وموريتانيا.

فهو بدأ حركته الخارجية بسفره الإرادي إلى تونس، التي كان يعتبرها بلده الثاني، في حين تعرف على الحركة الإصلاحية بالمغرب الأقصى التي اكتسحت الميدان بفضل دروس أبو شعيب الدوكالي، وكانت الشهاب مفضلة للعديد من الزعماء المغاربة أمثال علال الفاسي محمد غازي، ومحمد مكّي الناصري وشاعر مدينة فاس، الذين عملوا على إرساء قواعد العمل الإصلاحي بالمغرب<sup>(65)</sup>، ويذكر الأستاذ مراد نقلا عن الشهاب، انه دخل تونس كلما سمحت له الظروف بذلك، ففي سنة 1937 قام برحلتين إليها، في حين لم ترخص له السلطات بزيارة المغرب للمشاركة في الملتقى الإصلاحي الدوكالي<sup>(65)</sup>.

وتأثر أيضا ابن باديس بنشاط الحركات السياسية بالبلدان المغاربية خاصة النشاط الكشفي الذي اعتبره أحد العوامل الموحدة للنظام السياسي لهذه البلدان، فالإصلاحيون بالجزائر هم أول من اهتم بالعمل الكشفي، متأثرين بالتجربة التونسية في هذا الميدان، وكان لابن باديس عدة انشغالات بقضايا المغرب العربي، سبق أن أشرنا إلى بعضها مثل قضية الظهير البربري والانشقاق السياسي لتونس وإن السياسة الاستعمارية المطبقة على بلدان المغرب العربي تحيل دون تحقيق الوحدة السياسية، حيث يعتبر الاستعمار عائقا كبيرا في وجه هذه الوحدة.

لذلك نجد يوضح هذه الصورة بشكل واضح في جريدته الشهاب، موضحاً: "وإذا نظرنا إلى الأمة العربية على ضوء هذه الحقيقة فإننا نجد منها شعوبا مستقلة... ثم نجد شعوبا أخرى وهي شعوب الشمال الإفريقي المصابة بالاستعمار، في هذه لا وحدة سياسية بينها ولا بين غيرها ولا يتصور أن تكون بينها وحدة سياسية، ومن الخير أن تعمل كل واحدة في دائرة وظيفتها الخاصة على ما يناسبها من الخطط السياسية التي تستطيع تنفيذها بالطرق المعقولة الموصلة مع الشعور التام بالوحدة القومية العامة... ونحن نعلم أن الواقع في شمالنا الإفريقي العربي هو هذا بعينه"<sup>(66)</sup>.

وينتظر ابن باديس إلى الصعوبات الجامعة التي تشكل حجر عثرة أمام الوحدة السياسية موضحاً "فبقول بكل صدق وصراحة إن كل شعب من هذا الشمال مستقل تمام الاستقلال بخطه في سياسته لا تعرف هيئة منهم تتصل بهيئة" (67).

ونعتقد نحن أيضاً، صعوبة تحقيق تلك الوحدة في ظل السياسة الاستعمارية المطبقة والتي تختلف من بلد إلى آخر، مما جعل المغاربة والتونسين أنفسهم ينسحبون من أول مبادرة سياسية فعالة في إطار نقابة نجم شمال إفريقيا بفرنسا، ويتجهون نحو العمل الفردي لتحقيق أهدافهم، ولكن روح الإخاء والاتصال والانشغالات المشتركة ظلت في وجدان الحركات السياسية المغربية، وظل معها القلق الفرنسي يهتز لكل طارئ في الجزائر، لأنها في نظره مستوطنة فرنسية، وحاولت إدارته الاستعمارية في الجزائر شن حملة ضد كل فكر وحدوي، مدعية أنه من الشيوعيين أو أفكار الجامعة الإسلامية وأفكار أرسلان، ولكن حقيقة الأمر، كما يقول ابن باديس: "وإننا على يقين من أن الأوطان الإفريقية الثلاثة التي هم فرنسا، لم تتصل يوماً بيد أجنبية، ولا بموسكو ولا برلين وأعرف عن نفسي وعن رجال هذا الشمال الإفريقي إخواني إننا نأبى أن نكون من الأمم آلة في يد أن كان من الأمم التي تكيد لفرنسا إباء وترفعاً تمليه علينا عزة الإسلام وشم العروبة" (68).

وكثيراً ما تطرق ابن باديس إلى الصعوبات الذاتية التي يتميز بها كل شعب، بأن لديه شعور بالعمل الفردي وأن الاتحاد الإسلامي واجب علينا ولكنه غير موجود، أما مشاركة الشيوعيين فيعود لمصالح سياسية هم الجزائريين، لذلك فحجة فرنسا بمحاربة فكرة اتحاد الشمال الإفريقي غير مبررة وتقود إلى هاجس التمرد من السيطرة الفرنسية بأقطار المغرب.

وبذلك فإن ابن باديس عمل كثيراً في حقل التقارب بين البلدان المغربية، وفق الظروف السياسية لشعوب المنطقة، خاصة الشعب الجزائري التي عملت فرنسا على إبعاده عن محيطه العربي والمغاربي بشتى الطرق.

الخلاصة: وهكذا يبدو لنا أن الشيخ ابن باديس أقحم نفسه في قضايا الشمال الإفريقي، وأدخل الجمعية معه إلى الميدان السياسي، التي حرّمته على نفسها بموجب قانونها السياسي، لكن رئيسها كان يحاول مراوغة فرنسا للوصول إلى مبتغاه، لأن الجمعية كانت إطاراً قانونياً ينشط من خلاله ابن باديس والعلماء الآخرين، مبرراً ذلك بأنه يمارس عملاً سياسياً شرعياً، ولا يخالف القوانين الفرنسية. ولأجل هذه الغاية نستخلص النتائج الآتية من قراءتنا المتواضعة لفكر ابن باديس وأنشطته المختلفة الخاصة بالنظام السياسي من أجل قضايا الشمال الإفريقي كالآتي:

- لقد تدرج ابن باديس في رسم صورة واضحة عن وحدة الشمال الإفريقي، واضعا نصب عينيه سياسة فرنسا اتجاه هذا الموضوع ومدى قابلية شعوب المنطقة لهذا التصور.
- كشف عن وجهة نظره الخاصة في الخلافة الإسلامية، وكان من بين الشخصيات الإسلامية النادرة التي تحدث عنها بشكل واضح مبتعدا عن العاطفة، مجسدا أفكار واقعية لهذا الموضوع.
- فضل ابن باديس وضع إطار صحيح للوحدة، منتقدا النظم الشمولية، مرحبا بالمبادرات الفردية ذات الطابع القطري في إطار الجماعة الإسلامية ومبدأ الشورى كأساس لنظام إسلامي مستقبلي.
- وضح نضال الشعوب العربية والمغاربية بقيادة زعماء بارزين أمثال شكيب أرسلان وعلال الفاسي وعبد الرحمن التعالبي.
- أشاد بعبقريّة كمال أتاتورك رغم خلافه الديني معه، إلا أنه كان زعيما قوميا.
- ركز ابن باديس على الوحدة القومية والدينية مقلدا من شأن الوحدة السياسية للأقطار العربية.
- سعى إلى تجسيد أسس الأخوة والتفاهم مع التيارات الإصلاحية والسياسية في الشمال الإفريقي عن طريق الصحافة والزيارات إلا أنه اقتنع بضرورة العمل الفردي لكل قطر تمهيدا للوحدة الأخلاقية والدينية، وهو في نظرنا خطوة نحو الوحدة السياسية.
- عرض ابن باديس صعوبات العمل الوحدوي، وأنه يستحيل في خضم الظروف التي تمر بها الأقطار المغاربية التوصل إلى وحدة سياسية، بل اتفاق وتفاهم حول الطرق المؤدية إليها، ففهم واقع بلدان الشمال الإفريقي، وترك للمستقبل وحدة بتجسيد هذه الوحدة بعد الاستقلال.
- وفي نظرنا قد يتطلب ذلك الكثير من الوقت، حيث بينت الأيام مدى صحة آراء ابن باديس، حيث لا زالت قضية الوحدة السياسية مطلبنا شعبيا ولكنها لازالت تواجه مشاكل عدة، حتى بعد استقلال البلدان المغاربية. ويرجع ذلك أساسا إلى اختلاف التوجهات وانعدام رؤى واضحة لمستقبل الوحدة السياسية.
- وتبقى الآمال معلقة على وحدة المفاهيم المنطلقة من العروبة والإسلام والشخصية الحضارية المشتركة بين الشمال الإفريقي.
- ويدل ذلك أيضا على أن ابن باديس من العلماء الأوائل المنبهين إلى أهمية هذه الوحدة بمختلف صيغها. وتحمس لها مخاطبا العرب والمسلمين وشعوب الشمال الإفريقي، مما يجعلنا نقدر

مجهودات الشيخ ابن باديس في نضاله المستمر لتحقيق مطامح شعوب المغرب العربي، لعلاج مختلف القضايا التي شاهدها الساحة المغاربية آنذاك، والتي تمثلت في دحض السياسة الاستعمارية اتجاه قضايا الفتن، وإبعاد شعوب المغرب العربي عن محيطها العربي والإسلام والدعوة إلى المحبة والأخوة والتفاهم في ظل تراث الحضارة العربية الإسلامية.

#### الهوامش:

- 1- بليل (محمد)، تشريعات لاستعمار الفرنسي في الجزائر وانعكاساته على الجزائريين بين 1881 - 1914، القطاع الوهراني نموذجاً، مذكرة ماجستير جامعة وهران، 2006، ص 8
- 2- أنظر سعد الله (أبو القاسم)، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 4، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت 1996، ص 156-160  
- ابن العقون عبد الرحمان بن ابراهيم، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر، ج1، 1920 - 1930، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص 96  
3 - Merrad(A), le réformisme musulman en Algérie 1925-1940, essai d'histoire religieuse et sociale , 2ed, les éditions de Hekma , Alger 1999 pp 166-167
- 4- محمد الميلي، ابن باديس بوغروية الجزائر ط2، ساوات الجزائر 1980 ، ص-ص 9-12
- 5 - المرجع نفسه ص 12 وانظر أيضا طالبي عماري، ابن باديس، حياته وأثاره، دار ومكتبة الشركة الجزائرية 1960 ص 74
- 6- الشيخ البشير الإبراهيمي في قلب المعركة، إصدار سعد الله أبو العالم شركة دار الأمة - الجزائر ط1-1997، ص 214
- 7- طالبي عمار، ابن باديس وآثاره 1، الشركة الجزائرية - ط3-1997، ص 15.
- 8- تركي رابح، الشيخ ابن باديس باحث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة ط2 - المؤسسة الوطنية للكتاب، الرغاية - الجزائر 2003، ص 96
- 9- IHADDADEN (Z) histoire de la presse indigène en Algérie , pp 365 et 371 - 230- 228
- 10- بن. نبي مالك، مذكرات شاهد القرن، دار الفكر ط2-1984، ص ص 228-230
- 11- أنظر أجزاء من هذه الخطابة التي تعبر عن قوة بيانه لمخاطبة مستمعيه في جريدة الشهاب ج5 م 13- أكتوبر 1937، ص ص 228-230.
- 12- الميلي محمد، مرجع سابق صص 41-43
- 13- المرجع نفسه، ص 55
- 14- Hallal ( A ) , le mouvement réformiste algérien, les hommes et l'histoire 1931-1957, O.P.U 2002 , page 116
- 15- سعد الله (أبو القاسم)، جريدة الشروق، العدد 2463، 23 نوفمبر 2008.
- 16 - سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، 1900-1930، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992، ص 385.
- 17- Mairin (C.N), Le Dahra, Cassaigne, bosquet, pont de chelif, imprimerie de L'Ain Sefra , Mostaganem ; 1905, pp 38 - 45.
- 18- القانون الأساسي للجمعية، نقلا عن الشيخ محمد جبر الدين، مذكرات ج1، م.ر.ك، ص ص 123-124.
- 19 - سلوادي حسن عبد الرحمان، مرجع سابق ص 23.
- 20 - Hellal ( A ) , Op sit page 124
- 21 - مجلة الجندي، دورية يصدرها الجيش الوطني الشعبي، بدون عدد ولا تاريخ.
- 22- Centre D'Archive d'Outre Mer a Aix n Provence ; France ; Boite N= 9314 /72 , série continuée du département de Constantine , Etude sur L'enseignement Privé musulman En Algérie
- 23- بليل محمد، مرجع سابق، صص 22-40.
- 24- جريدة الشهاب، ج9، م 13 عدد نوفمبر 1937، صص 403-445
- 25- الشهاب ج10، م12، شوال 1355، جانفي 1973، نقلا عن الميلي محمد، مرجع سابق ص 172-173/ وانظر أيضا تعليق رابح تركي وإشاداته بمواقف ابن باديس، مرجع سابق ص 143.
- 26 - العقون، مرجع سابق ص 164-170
- 27 - سعد الله، أبحاث وآراء، ج4، مرجع سابق ص 141.
- 28 - Echo d' Oran N°12 année, 1930
- 29 - Merrad (A), op sit p 184
- 30- تركي رابح، مرجع سابق، ص 123.

- 31 - المرجع نفسه ص 126
- 32 - سعد الله، أبحاث وآراء، ج 4، مرجع سابق ص 150
- 33 - جوليان شارل اندري، إفريقيا الشمالية تسيير، ترجمة المنجي وآخرون، الدار التونسية 1976، ص ص 133-134
- 34 - AGERON(CH-R) Histoire de l'Algérie contemporaine, PUF Paris 1980 p 85
- 35 - جوليان، مرجع سابق ص 103
- 36 - سعد الله، أبحاث وآراء، ج 4، مرجع سابق ص 150
- 37 - نص الرسالة، العقول، المرجع سابق ص 86
- 38-Merrad (A) , OpCIT PP 166-167
- 39 - جوليان، مرجع سابق ص 178
- 40- Sora (B), histoire de l'Algérie coloniale, 1830-1954, ed de la découverte, Paris 1991,p77.
- 41 - سعد الله، أبحاث وآراء، ج 4، مرجع سابق ص 151
- 42 - جوليان، مرجع سابق ص 171.
- 43- pp , 167-168 Merrad (A) , OpC 40
- 44- الشهاب ج 13، م 12 فيفري 1937
- 45 - مهديد ابراهيم مرجع سابق ص ص 104-106
- 46 - جوليان، مرجع سابق ص 172
- 47 - سعد الله، أبحاث وآراء ج 4، مرجع سابق ص 153
- 48 - عرف : عبارة عن تشريعات مختلطة من التراث البربري القديم والشرع الإسلامي انظر:  
بليل محمد، فصل عن التشريعات القضائية، مرجع سابق ص ص 22-40
- 49 - جوليان، مرجع سابق ص ص 110-111
- 50 - سعد الله، أبحاث وآراء ج 4، مرجع سابق ص 152
- 51 - جريدة الشروق اليومي، مرجع سابق
- 52 - مهديد ابراهيم، مرجع سابق ص: 26.
- 53- Archives Nationale De France Boite = 4AG / 518, Questions musulmanes
- 54- شريط أمين، التعددية الحزبية في تجربة الحركة الوطنية: 1913م، 1962، د م ج، 1992، الجزائر ص: 31.
- 55- شريط أمين مرجع نفسه ص: 31.
- 56- Merad(A) opcit pp314- 313
- 57- الشهاب، حوان 1936م نقلا عن جوليان، مرجع سابق ص: 137.
- 58 - شريط أمين، مرجع سابق، ص: 31.
- 59- الشهاب ماي 1938، نقلا عن شريط أمين، المرجع نفسه ص: 61.
- 60 - سعد الله أبحاث وآراء، ج 4، أنظر مقال له حول "الأمير شكيب أرسلان والقضية الجزائرية" مرجع سابق، ص: 114-140
- 61 - Mokdad(S) , domination coloniale et rupture nationaliste , OPU, Alger 1984 ,p53
- 62 - سعد الله أبحاث وآراء ج 4، مرجع سابق ص 122\_123
- 63- الشهاب ج 11، م 13، ذي القعدة 1356هـ، جانفي 1938م، نقلا عن الميلي محمد، مصدر سابق ص ص: 240-241.
- 64- Merad (A) opcit , p 369
- 65- Ibid, p369
- 66- الشهاب، ج 11، م 13/ جانفي/ 1938م
- 67- المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة.
- 68- الشهاب. 92- م 15- نوفمبر 1937.